نهاية المغتصب

عند وفاة جوليا كانت أختها ماسيا قد ترملت، وكان زوجها جوليوس افيتوس Julius Avitus الأكبر منها سناً قد شغل عدة وظائف مرموقة في خدمة الدولة حيث تمتع بثقة كاراكلا، كما تمتع بثقة سبتموس قبله، ثم عين في مجلس المستشارين في قبرص ومات هناك بعد أن ترك ماسيا ولها بنتان سوهيمياس Sohaimias[1] ومامیا Mamaea، وقد تزوجت البنت الكبرى بفاريوس مارسيليوس Varius Marcellus الذي كان متسامحاً فلم يغضب بل تغاضى عن اتصال زوجته بوريث الإمبراطورية. وعندما أصبح كاراكلا إمبراطوراً وغاب في رحلته إلى الحدود على الراين ترك فاريوس نائباً عنه في قيادة جيوشه في إيطاليا، وبعد أن قسمت ولاية إفريقيا إلى قسمين إداريين أصبح فاريوس حاكم القسم الغربي وهو نوميديا Numidia ولكنه مات هناك بعد وصوله بقليل في أثناء حياة كاراكلا. وهنالك في ضواحي روما لوحة كتبت لذكراه باسم سهيمة وأطفالها نصها «إلى الزوج والأب العزيز» هذا وقد ادعى ابنها الأكبر باسيانوس Bassiaanus أنه ابن كاراكلا الشرعي أما بقية أولادها فلم يعرف عنهم شيئاً.

أما أخت ماسيا الصغرى وهي ماميه Mamaea فكانت تختلف في أخلاقها وشخصيتها عن أختها وكانت أقل نشاطاً ولكن أكثر جدية. وكانت تقاسم خالتها اهتمامها بالفلسفة والدين وورثت المقدرة العملية التي امتلكتها كلا الأميرتين السوريتين من الجيل القديم. مات زوجها الأول وهو شاب وأما الثاني سيسيوس مارسانيوس Sessius Marcianus فكان من أصل وضيع وقد طلبت من كاراكلا أن يحتفظ لها بالمركز في مجلس الشيوخ الذي كان يحتله زوجها الأول فوافق على ذلك، وكان سيسيوس نفسه متزوجاً قبل زواجه من هذه وكان متقدماً في

١- تكتب هكذا بالطريقة الرومانية والاسم العربي هو سهيمة.

السن إذ كان له ابنة من زوجته الأولى متزوجة أيضاً. ولم يؤدِّ أي دور في الحوادث التي تلت موت كاراكلا، ومن الممكن أنه لم يكن على قيد الحياة حينها. وقد ترك ماميه ولها طفلان: ولد يدعى أليكسيانوس Alexianus وهو أصغر بخمس سنوات من ابن أختها باسيانوس Bassianus وبنت تدعى ثيوسليا Theoclia.

عند وفاة الكاهن الأعظم في حمص وهو والد جوليا وماسيا، انتقل اللقب إلى الفرع الأكبر سناً في الأسرة؛ أي إلى حفيد ماسيا وهو باسيانوس Bassianus ابن سهيمة. ونظراً لصغر سنه سيطرت جدته على الثروة العظيمة المحفوظة في المعبد في حمص. وعندما عمل ماكرينوس (الإمبراطور الجديد) على الإحاطة بالأسرة بعد موت جوليا وأجبرهم أي (ماسيا وبنتيها وأحفادها) على الإقامة الجبرية في حمص، ووضعهم في مركز دقيق بالنسبة إليه فاستطاعوا أن يلحقوا به الضرر. إذ لم تكن حمص بعيدة عن مجرى الأحداث فكانت مركزاً مزدحماً بالتجارة ومحجاً يسعى إليه الحجاج في إحدى المراكز الغنية في الإمبراطورية. وقد تمتعت ماسيا بالنفوذ والهيبة كرئيسة لأسرة الكهنة وتحت تصرفها أموال وكنوز المعبد المقدسة. وكان هنالك معسكر للجيش الروماني على مقربة من المدينة ولم يكن ضباط هذا الجيش راضين عن ترقية عريف الحرس الإمبراطوري لمركز الإمبراطور. ذلك الوضع الذي فرضه عليهم الجيش في ما بين النهرين وهكذا أصبح معسكر الجيش والمعبد على وفاق تام.

إن المواهب السياسية والطموح الذي ظل مكبوتاً زمن حكم جوليا، وجد لنفسه متنفساً في عقل ماسيا الآن.. وأصبحت على علم بالدور الذي أداه ماكرينوس في قضية اغتيال كاراكلا، مما زاد في سخطها عليه كمغتصب سرق اللقب الإمبراطوري الذي كان من حق أسرتها فقط. والحقيقة أن كاراكلا وجيتا لم يتركا وريثاً ولكن كان لها حفيدان هما باسيانوس واليكسيانوس وهما استمرار للأسرة. ورغم أنهما لا ينتسبان إلى سبتموس سيفيروس بقرابة الدم، إلا أنها كانت تعتمد على تلك الإشاعات التي تقول إن باسيانوس هو ابن كاراكلا بعد تلك العلاقة الغرامية التي حدثت بين كاراكلا وسهيمة قبل مولده. وقد أصبح هذا في الثالثة عشرة من العمر وأصبح شخصية مرموقة في المدينة يقوم بواجبات الكاهن الأعظم الوراثية ويظهر بملابسه الكهنوتية التقليدية الفخمة في المناسبات. قررت ماسيا أن هذا الشاب هو المرشح الوحيد لمنصب الإمبراطور وهو يصلح لذلك أكثر من ابن خالته أليكسانيوس ولكنها ندمت على هذا الاختيار فيما بعد.

بدأت العمل بحماس ولم تثنها عن عزمها تلك الصعوبات الناجمة عن كون ذلك الوريث الذي تقدمه للإمبراطورية لم يكن إلا طفلاً لم يصل إلى سن النضوج، فضلاً عن كونه ابناً غير شرعي للإمبراطور. وقد تشجعت بالعطف والقبول الذي وجدته في المعسكر المقابل. ولكنها وسعت نشاطها إلى الولايات

المجاورة التي كانت مؤيدة لأختها جوليا. وكانت أفكارها تناسب الوضع الزمني عندما أعلنت أن حفيدها وريث للأسرة التي أسسها سبتموس سيفيروس، وهو يمثل استمرار تلك الأسرة التي عملت على إحلال السلم في الإمبراطورية عبر عصر الأنطونيين وكان لديها بعض الموارد التي ساعدتها على دعم آرائها بالفوائد المادية.

لقد تجاهل ماكرينوس (الإمبراطور الجديد) هذه الأعمال بازدراء فقد كان لديه على حد قوله أعمال كثيرة تلهيه عن البحث في قضية امرأة وطفل. إذ إنه بعد اغتيال كاراكلا وردت الأخبار أن أرطبان (ملك فارس) تقدم على رأس جيش للانتقام لنفسه ولابنته مما حدث لها في حفلة الزواج التي أجهضت، وللانتقام لنهب مدينة اربيلا والإساءة إلى قبور الأجداد. وقد وصل إلى نهر الدجلة مخترقاً عمق ما بين النهرين. فما كان من ماكرينوس الذي كان محامياً أكثر منه جندياً إلا أن سعى للصلح بحجة أن الإمبراطور المتهم والمذنب قد مات، وأنه قد ورث العرش وهو مستعد لإصلاح ذات البين. كان لهذا الجواب اللين عكس النتيجة إذ عندما فهم أرطبان أن كاراكلا قتل وأن الإمبراطور الجديد لم يؤمن مركزه الجديد، تشجع برفع الثمن، فلم يطلب بناء المدن المخربة من جديد، ولا دفع مبلغ ضخم لقاء تدنيس قبور الآباء والأجداد فحسب، بل طلب من الجيوش الرومانية الانسحاب عبر نهر الفرات وترك ما بين النهرين جميعها للإمبراطورية الساسانية.

كان هذا العرض غير مقبول حتى من ماكرينوس نفسه. ولهذا قاد جيشه شرقاً واشتبك مع الساسانيين في معركة قرب نصيبين Nisibin وتتعارض الأخبار حول نتيجة تلك المعركة ولكن من الواضح أنه خاب أمل أرطبان بالنصر على الجيش الروماني الذي لم يكن على تمام الوفاق مع الإمبراطور الجديد وأن هذا الجيش سيتمكن من الانتصار. إذ كانت نتيجة المعركة متعادلة وغير حاسمة ونصب الجيشان خيامهما مقابل بعضهما البعض في الصحراء بينما بذلت محاولة لحل القضية بواسطة المفاوضات وبقي الحال على هذا المنوال عدة شهور، ولم يستطع الفريقان الاتفاق كما لم يستطيعا حل الخصام بواسطة معركة أو تجديد المناوشات، حل القلق في نفوس الساسانيين في أواخر الخريف فلم يكن لدى الملك الساساني جيش محترف يعتمد عليه. إذ عندما بدأ الحرب طلب من رعيته وأتباعه مساعدته ودعمه، وقد تألف هؤلاء من شراذم أتت من الأرياف بعد أن أجبروا على ترك بيوتهم وحقولهم مهملة في سبيل اتباع قضية مليكهم ودعمهم، وكان هذا الجيش السيئ الترتيب والانسجام بحاجة إلى الصبر لاحتمال الانتظار الطويل في كسل دون عمل مع قلة في المواد الغذائية والماء، وهكذا بدأ ذلك الجيش غير المحترف بالذوبان إذ إن معظم أفراده انسحبوا لاستئناف أعمالهم كمزارعين أو رعاة.

وأما الجيش الروماني فلم يكن أحسن حالاً من هذا الجيش بكثير فقد شعروا بالكسل وعدم الراحة ولم يكن لديهم من عمل سوى مقارنة الإمبراطور الجديد بالقديم، فلم يستطع ماكرينوس إحلال النظام ولا الحصول على الولاء والاحترام فقد كان يتوق كغيره من الجنود إلى الرجوع إلى المعيشة المدنية السابقة. وعندما عرض أرطبان الانسحاب الكلي إلى ما وراء نهر دجلة مقابل دفع التعويضات المطلوبة وافق ماكرينوس على ذلك بارتياح، وكان مبلغ التعويضات ضخماً. وبالوقت نفسه تعرض الجيش الروماني في أرمينيا إلى نكسة وانكسار حين رجع المدعي تيريداتس إلى العرض بعد أن أُسِرَ على يد القائد الذي عينه كاراكلا وأصبح حاكماً لأرمينيا تحت سيادة الدولة الساسانية، وإن كل ما وافق عليه أرطبان هو إخلاء منطقة ما بين النهرين مؤقتاً، ولم يعلم أحد متى سيعود هو أو أخوه إلى احتلال المنطقة ثانية. وهكذا وضع ماكرينوس جيشه في عدد من الحاميات لحماية الحدود بينما انسحب هو لقضاء الشتاء والاستراحة والاستجمام في أنطاكية.

وفي أثناء ذلك كانت روما تنتظر استقبال الإمبراطور الجديد. إذ لم يصدق أعضاء مجلس الشيوخ خبر موت كاراكلا أولاً، وظنوا أن كاراكلا نفسه قد لفق هذا الخبر ليرى وقعه عليهم وليعرف من يحبه ومن يكرهه منهم. ولكن بعد أن تأكد لهم الخبر على يد اوفتوس الذي سلم لهم رسالة الإمبراطور الجديد، ظهرت ميولهم الحقيقية وهي أنهم كانوا يرحبون بأي شخص يحل محل كاراكلا الذي انخفضت شعبيته بينهم إلى الحضيض، وغفروا لماكرينوس أخطاءه وأصدروا المرسوم المعتاد الذي يرفعه إلى مقام الإمبراطور الإلهي ليلحق بالأباطرة العظام الذين حكموا في الماضي.

وأما بقية سكان روما من العمال والعبيد المتحررين والعبيد، فلم يكن هنالك من سرور ولا حزن بالمعنى الحقيقي، بل كان هنالك قلق وعدم ارتياح إذ إن سلوك كاراكلا (حتى قتل أخيه) لم يكن له إلا تأثير قليل على مصالح الرعايا الفقراء. فكان هؤلاء يعتقدون أنه استمر في تنفيذ الأعمال التي بدأها والده، وإنه قد قدم للشعب حكومة صالحة، استطاع الناس العيش بسلام في ظلها. وأما هذه الحالة التي نشأت بعد قتله فقد أثارت الذكريات في عقول الكهول من الشعب.

ذكريات الحرب الأهلية والفوضى التي تبعت موت كومودوس وكان كثيرون من الشيوخ حاضرين عام 195 عندما كان الشعب يصيح «متى ستنتهي الحرب»؟ وهكذا فقد كانوا يخشون من تلك الفكرة بأن يصرخوا الصرخات نفسها في المستقبل القريب.

وحدث منظر يشبه ذلك المنظر عندما أطلق ماكرينوس لقب القيصر على ابنه البالغ من العمر تسع سنوات وعقد احتفالاً لسباق الخيل بهذه المناسبة. وكان الحماس معدوماً بالنسبة للإمبراطور الجديد، ذلك الإمبراطور الغائب الذي لم يفعل شيئاً لروما سوى تنصيب ابنه قيصراً - هذا القيصر الطفل - في الوقت الذي

كانت الدولة فيه بحاجة إلى أياد قوية لحمايتها من الخطر. وعندما بدأ بعض الانتهازيين بالهتاف بحياة الإمبراطور الجديد قابلهم الجمهور بالصمت المطبق، ثم فجأة رفع الجميع أيديهم إلى السماء وبدأت الأصوات تردد الدعاء إلى الإله جوبتر «إنه هو وحده الأغسطس، ونحن بحاجة إليه وليس إلى أي شخص آخر». وهكذا خسر ماكرينوس عطف مجلس الشيوخ.

عين ماكرينوس زميله ادفنتوس عريفاً لمدينة روما رغم أنه لم يكن محبوباً في معظم أوساط المدينة ولم يكن مثقفاً ولا ذا مواهب تساعده على تصريف شؤون وظيفته، وقد كان نظره خفيفاً لا يستطيع تمييز الكلمات وقد زاد الهزء والسخرية لدى الجمهور عندما قرر ماكرينوس تعيينه قنصلاً للسنة القادمة بالاشتراك مع الإمبراطور نفسه. ولما كان ماكرينوس غير قادر أو غير راغب في ترك سوريا والمجيء إلى روما، لذلك حضر ادفنتوس بالنيابة عنه احتفالات العام الجديد 218م وقد كان ادفنتوس يخشى حضور مثل تلك المناسبات فتظاهر بالمرض ولجأ إلى الفراش.

وعندما سمع ماكرينوس الخبر عزل ادفنتوس من وظيفته كعريف للمدينة ولكن بعد فوات الأوان، فقد تضافرت الظروف ضده فأعضاء مجلس الشيوخ كانوا غاضبين لعدم حصولهم على الفوائد المرجوة التي كانوا يتوقعونها والآخرون غضبوا لما لاقوه من الإهانات لتأييدهم الحكم الماضي. وقد اتهم الجميع ماكرينوس بحماية المخبرين الذين خدموا كاراكلا والذين كان لهم التصاق به عندما كان عريف الحرس البريتوري. ومع ذلك فقد حصل ماكرينوس على تأييد مجلس الشيوخ لعدم وجود البديل. وعندما كتب لمجلس الشيوخ وصف الشروط التي تم الاتفاق عليها مع أرطبان ملك الساسانيين فصوت مجلس الشيوخ «بإعطاء الشكر» وأنعموا عليه بلقب بارتيكوس Particus احتفالاً بالنصر، ولكنه رفض هذا اللقب لعلمه أنه لا يستحقه، ولأنه كمحام كان يكره التلفيق وعدم الدقة.

ولو كان ماكرينوس حاضراً في روما لتغلب على مقاومة معارضيه فقد وهبه الله لساناً ذلقاً. ولكنه قرر البقاء في سوريا وبهذا انتهز خصومه فرصة غيابه للتجريح به فاتهموه بالالتصاق في أنطاكية للتمتع بالمباهج التي اشتهرت بها. وشجبوا عاداته في ارتداء الملابس الجميلة وحضور حفلات الرقص ولأنه أطلق لحيته تشبهاً بالفلاسفة ولأنه كان يتكلم ببطء وترو مضاهياً أسلوب ماركوس اوريليوس بالكلام ولكن أنطاكية كانت مكاناً ملائماً، وكانت له أسبابه للبقاء فيها. فقد كان يخشى حدوث غزو مفاجئ جديد من قبل الساسانيين للإمبراطورية واعتقد أنه يجب أن يظل على رأس جيشه لصد أي غزوة قادمة.

ولكن مخاوفه لم يكن لها أي أساس فقد استأنف الأخوان الساسانيان نزاعهما وسرعان ما انشغلا كلاهما بتهديد ثورة وطنية عارمة في فارس، والتي قدر لها

إزاحة حكم الأسرة الساساسانية واستبدالها بإمبراطور فارسي جديد. ولو عرف ماكرينوس ذلك لوفر على نفسه عناء الوقوع في خطر كبير على حياته.

لم يكن عدم رضا الشعب هو الخطر الوحيد على ماكرينوس بل كان أيضاً الجيش الذي شعر بالملل والكسل. وأثارت القصص التي كان يختلقها البعض في روما عن أحواله وأعماله في أنطاكية الغضب لدى الجنود حيث كان الجيش منكمشاً على حدود الصحراء وكان الجنود، يقارنون بين معيشة الترف التي كان يحياها الإمبراطور في أنطاكية وبين حالتهم المحزنة في المعسكرات مما زاد في نقمتهم عليه. ومما زاد الطين بله تلك الإصلاحات التي أعلنها الإمبراطور الجديد من إنقاص رواتب الجنود إلى الحد الذي كان سائداً في حكم سبتموس سيفيروس وإلغاء عدد من الامتيازات التي تمتع بها الجيش. والحقيقة أن الإمبراطور كان واقعاً في أزمة. إذ إن روما كانت تشكو من زيادة الضرائب وتطلب تخفيضها معلنة أن سبب ازدياد عبء الضرائب هو سياسة كاراكلا التي كانت تزيد في امتيازات الجيش على حساب المدنيين والدولة، ومع ذلك فإن أخبار إنقاص رواتب الجند كانت الفرصة المناسبة لقيام الجنود ضده.

ولما كان الإمبراطور الجديد معتاداً على المفاوضات عمل جهده لتخفيف الصدمة بأن عمد إلى تحديد تطبيق تخفيض الرواتب الجديد بالمتطوعين، وترك رواتب الجنود القدامى كما هي دون أن تمس محاولاً كسب ود الجنود القدامى. ولكن في ظروف أخرى ربما كان مسعاه ناجحاً لاسيما أن الجيش كان في حالة استنفار خوفاً من الحرب ضد الساسانيين. عندها أصبح الجيش واعياً دوره فاتفق الجنود الجدد والقدامى معاً بعد أن أُشيع أن الإمبراطور ينوي تخفيض الرواتب للجميع بعد انفراج الأزمة.

انتشر التذمر وسادت الفوضى في الجيش، وبلغ الإمبراطور الجديد أن بعض الجنود يتحرشون بالمدنيين والوطنيين على الحدود وهي منطقة حساسة يجب معاملة المدنيين برفق خوفاً من انحيازهم للساسانيين، ولهذا أصدر الإمبراطور أمراً بعقاب المعتدين خوفاً من تكرر تلك الحوادث. وردت قصة تشير إلى تلك العقوبات حيث اتَّهَمَ جماعة من الجنود بالاغتصاب الجماعي لفتاة تخدم في أحد البيوت وقد حَكَمَ على اثنين منهما بوضعهما وهما على قيد الحياة في جثة عجل بعد إفراغها من محتوياتها ولم يبق سوى رأسيهما بارزَيْن حتى يستطيعا التحدث إلى بعضهما ويسمعا أنين بعضهما بعضاً. وقد ظلا على هذا الحال حتى تعفن جسدهما وماتا. سجلت هذه الحادثة كدليل على قسوة ماكرينوس ولكن الحقيقة أن هذه الطريقة من طرائق العقاب لم تكن من اختراع ماكرينوس، بل من عمل أحد الضباط على الحدود لأن الإمبراطور كان بعيداً في أنطاكية، ولكن هذا القصاص كان رادعاً للجنود من التعرض للمدنيين في المستقبل.

وفي أثناء ذلك ظلت ماسيا وبناتها على اتصال بمجرى الحوادث وبما أصبحت عليه حالة ماكرينوس من الجفاء والكراهية في روما لاسيما لتأخره في

زيارتها وعن انخفاض المستوى الأخلاقي للجنود الذين يحرسون نهر دجلة، وعلموا أيضاً عن أسف الجنود لفقدانهم كاراكلا هذا الأسف الذي عم أرجاء الإمبراطورية، وعن التأييد الذي سوف يتمتع به أي شخص يدعي أنه ابن كاراكلا. وبدأت الحقائق تنجلي حول دور ماكرينوس في قضية مقتل كاراكلا. ووصلت الأخبار إلى (ماسيا) التي بدأت بإذاعتها وتضخيمها وفضح خيانة ماكرينوس.

كان معسكر الجنود الذي اعتمدت عليه ماسيا يقع على بعد قرابة أربعين ميلاً من حمص، وكان هنالك اتصال بين المعسكر والمدينة وكانت عربات الجيش تنتقل غادية رائحة، وكان الجنود أثناء عطلهم يهرعون إلى المعبد يجذبهم شكله والمتعة في الطقوس الدينية الموجودة فيه، وكان يلذ لهم رؤية الكاهن الأعظم الذي كان يؤدي دوراً بارزاً في إجراء الصلوات وهو في أفخر ملابسه، وقد كانت العظمة والأبهة تجعله يبدو أكبر سناً مما هو عليه، وكان الجنود يدهشون ويزيدون تعلقاً به عندما يعلمون أنه ابن إمبراطورهم المغدور، وكان هذا كافياً لقناعتهم بأنه أفضل من ماكرينوس ويستحق ارتداء اللباس الإمبراطوري الأرجواني. وكان شكهم يزول عندما يقال لهم إن ماكرينوس هو المسؤول عن مقتل كاراكلا.

وكان من بين أصدقاء ماسيا المخلصين والنشطين في الدعاية لها شخصان هما كومازون Comazon وجانيس Gannys. وكان الأول جندياً قديماً ولكنه كان من أصل وضيع لكنه كان يتمتع باحترام رفقائه الضباط الذين كانوا يعتبرونه ذا موهبة في القيادة وفي القتال.

أما جانيس القائد الآخر فكان سياسياً أكثر منه جندياً ولا يُعرف الكثير عن ماضيه عدا عن أن ماسيا قد استخدمته كمعلم لحفيدها وأن والدة الطفل سهيمة التصقت به واتخذته عشيقاً لها. ولكن يبدو أنه كان الدماغ المفكر في تلك الحركة الرامية إلى رفع تلميذه إلى مرتبة الإمبراطور إذ في عشية نجاح الخطة أصبح مستشاراً لماسيا، وكان إخلاصه ومقدرته التنظيمية كافية، بل لم يكن من الممكن الاستغناء عنها لتحويل تلك المؤامرة التي بدأت في معبد سوري في حمص إلى حكومة ذات سيادة تحكم الإمبراطورية الرومانية بأجمعها. ويأسف ديو لحدوث تلك المغامرة كل الأسف ولكن لا يسعه إلا تقديم المدح والثناء لهذا الرجل فيقول: «لم يجترح هذا الرجل أي عمل شرير مع أي إنسان وقد فعل الخير للكثيرين».

لقد اتخذت الخطوة الحاسمة في مساء 15 أيار عام 218. فقد تصرف جانيس Gannys بوحي إرادته ولم يخبر ماسيا أو سهيمة بخطته إذ ربما كان يخشى عدم موافقتهما على المغامرة، ولم يكشف خطته إلا إلى تلميذه إمبراطور المستقبل. وكان هنالك بعض الملابس في منزل الكاهن الأعظم في حمص مخزونة منذ أيام جوليا، كان كاراكلا يلبسها وهو طفل ويمكن تمييزها لوجود الشارة الإمبراطورية التي تزينها. طلب جانيس من الولد ارتداء تلك

الملابس وانطلقا معاً على ظهور الخيل في الظلام، ومعهما حرس مؤلف من ستة رجال من الجنود الهاربين من جيش ماكرينوس كانوا مختفين في الجوار استطاعوا إرشاد الركب إلى الطريق المختصر، فوصلوا إلى معسكر الجيش قبل حلول الفجر بقليل.

ومع أن جانيس كان قد اتخذ الاستعدادات وهيأ المناخ المناسب للعمل بعد كسب تأييد كثيرين من رجال الحامية إلى جانبه إلا أنه لم يكن متأكداً من الاستقبال الذي سوف يحظى به عند وصول تلك الجماعة إلى الأبواب ولكن جسارته وشجاعته نجحت أخيراً. فقد كان منظر الولد وهو يرتدي الملابس الإمبراطورية مع الإشاعات التي سرت حول قرابته كابن لكاراكلا أشعلت الحماس في الجنود للترحيب بهما. ففتحوا الأبواب حالاً وركب إلى المعسكر تحيط به التحيات والتمنيات وصرخات التأييد من كل مكان. فأحضروا عباءة أرجوانية وألقوا بها فوق كتفيه وهتفت الحامية بأكملها وهي تُحَيِّيه بلقبه الجديد الإمبراطور ماركوس اوريليوس انطونيوس.

أُرسل رسول إلى حمص يحمل تلك الأخبار ويسدي النصح لماسيا وأسرتها بالالتجاء إلى الحامية قبل أن يستطيع ماكرينوس اجتراح أي عملية انتقامية. فوصلت ماسيا ومعها سهيمة ومامیا وابنها الصغير اليكسيانوس... أصبح المكان مزدحماً عندما جلب الجنود زوجاتهم وأطفالهم من القرى المجاورة إلى الحامية. كان هنالك سبب معقول لأن جوليانوس قائد القوات في حمص والذي كان موالياً للإمبراطور ماكرينوس لم ينتظر الأوامر من أنطاكية للتحرك ضد المتمردين، بل تقدم بسرعة للقضاء عليهم وإخضاعهم، ولم يظهر أي رحمة لأي شخص وجده من رجالهم وكان بين الضحايا ابنة مامیا لزوجها وزوجها، فقد أَجَّلَ هؤلاء رحلتهم إلى المعسكر من حمص فأمسك بهم وقُتِلُوا. وبعدها توجه جوليانوس إلى المعسكر الثائر وكان جيشه مؤلفاً من متطوعين من موريتانيا وهم من مواطني ماكرينوس. قاتل هؤلاء ببسالة ونجحوا في اختراق أحد الأبواب ولكن الجنود الآخرين لم يظهروا حماساً في استئناف القتال وأخيراً سحبهم جوليانوس بعد غياب الشمس وهو يأمل أن تستسلم الحامية دون قتال. ولكن خاب أمله فقد أصلحت الحامية الخرق أثناء الليل، وفي الصباح ظهر الولد الإمبراطور على السور ليراه الجميع وصرخ مؤيدوه للعدو «ماذا تفعلون أيها الرفاق لماذا تحاربون ضد ابن ولي نعمتكم»؟.

لقد كان لهذه الكلمات أثرها المطلوب فقد زاد الإحجام عن القتال الذي ظهر في اليوم السابق، ولم يبق متحمساً للقتال سوى الجنود الموريتانيون. خطب الولد الإمبراطور ومدح أباه المشهور ووعد باقتفاء أثره واتباع خطته بالتسامح والكرم تجاه جنوده. زد عن ذلك أن كومازون الموالي لماسيا كان موجوداً في المعسكر وكان له عدة معارف بين الجنود في الفريق المهاجم، فاتصل بهؤلاء سراً وأخبرهم أن أي جندي يقتل ضابطه سوف يكافأ بمنحه أموال وأملاك ذلك القائد

ورتبته. وعندما رأى جوليانوس أن المعركة قد تحولت إلى جدال عقيم حث رجاله وأمرهم بالقتال وتجديد الهجوم ولكن لم يعد أحد منهم يدين له بالسمع والطاعة، فقد سببت أوامره وأثارت التمرد المفضوح وهجم الجنود على ضباطهم وقتلوهم ولاسيما أولئك الذين رفضوا تغيير ولائهم واتباع الإمبراطور الولد الجديد. فالجيش الذي أتى لمهاجمة المعسكر أصبح معيناً ومدداً للجنود المدافعين.

عندما هرب جوليانوس بنفسه ومعه بقية الجنود الموريتانيين الذين بقوا على قيد الحياة توجه إلى أفاميا، ولكن هذا الملجأ لم ينفعه فالفرقة التي كانت متمركزة هناك كانت من أعوان كومازون ولذلك هاجم هؤلاء جوليانوس وتغلبوا على حرسه وقطعوا رأسه.

وصلت أخبار انكسار جوليانوس وليس موته إلى أسماع ماكرينوس في أنطاكية فانطلق حالاً إلى أفاميا ليتقصى جلية الأمر، وقد أثر حضوره على رأس جيش قوي فقدمت له الحامية الخضوع والاحترام ولم يكشف له أحد ما حدث لجوليانوس خوفاً من أن ينتقم من المذنبين والأبرياء معاً. وقد سُرَّ ماكرينوس من ولاء الحامية واعتقد أن جوليانوس لا يزال حياً يقاوم الفتنة وأخذ ينظم شؤون الجيش في أفاميا التي كانت تنافس حمص على نهر العاصي الأعلى، ولكي يضفي البهاء والعظمة على زيارته أعلن تنصيب ابنه - الذي عين في منصب القيصر يوم ميلاده منذ ثمانية أشهر فقط - إمبراطوراً. وأعلن أن ابنه مساوٍ له في المرتبة والقيمة وأعلن أنه قرر بهذه المناسبة توزيع الأموال والهبات على الجنود وإقامة وليمة فاخرة لأهالي المدينة. وأثناء الوليمة تقدم جندي منه وسلمه رزمة من القماش ملفوفة ومثبتة بخيوط وأخبره أن هذه الرزمة قد أتت من جوليانوس وتحتوي رأس الولد من حمص ولكي يثبت أقواله أشار إلى الشمع الذي ختمت به تلك الرزمة وكان الشمع يحمل الخاتم الرسمي.

ابتهج ماكرينوس بما سمع وأصر على فتح الرزمة حالاً أمام جميع ضيوفه. ثم أمسك بسكين وقطع الخيوط ثم بدأ بإزالة الأغلفة وحالما نزع آخر غلاف انسل الجندي الذي جلب الرزمة وابتعد ملتحقاً برفاقه الذين كانوا يضحكون ثم سقط رأس من الرزمة وتدحرج على الأرض ولم يكن هذا الرأس سوى رأس جوليانوس.

قفل ماكرينوس راجعاً إلى أنطاكية بعد أن علم أن الخيانة قد بدأت تطل برأسها ولم يعد ليستطيع التمييز بين العدو والصديق. ولدى رحيله أعلنت الحامية الموجودة في أفاميا انضمامها وتأييدها للحركة التي ظهرت في حمص وتبعتها بعض الولايات الأخرى في سوريا وفي البلدان المجاورة ما عدا مصر التي كان اسم كاراكلا فيها في الحضيض. فالحاكم الذي عينه ماكرينوس هناك ألقى القبض على أعوان ماسيا وعملائها وأعدمهم. ولكن عندما سمع الشعب بالقوة المتزايدة للحركة الجديدة لم يعودوا يفكرون بمذبحة الاسكندر بل بالفوائد المتوخاة من الانضمام إلى الحركة الجديدة، وهكذا أعلنوا الثورة والعصيان ضد

الحاكم الذي هرب من مصر إلى إيطاليا واختبأ هناك إلى أن اكتشفه بعض أعدائه. والحقيقة أن الاعتراف بالحكم الجديد لم يلق معارضة كبيرة في معظم الأوساط سواء المدنية أو العسكرية. ومن الغريب أيضاً أن ذلك الاعتراف كان يحصل بسهولة تامة على الرغم من أن الحاكم الجديد لم يبلغ سن الرشد بعد، فضلاً عن أنه كان يشغل وظيفة الكاهن الأعظم لإحدى الديانات السورية الغريبة عن روما وتقاليدها. فلو رآه رعاياه وهو يقوم بإجراء طقوس تلك الديانة بملابسه الشرقية ووجهه المطلي بالصباغ على مذبح معبد ايلاجابال Elagabal لما تحمسوا للمناداة به إمبراطوراً بهذا الشكل ولكنهم كانوا يعلمون أنه ابن كاراكلا ولا يهمهم إذا كان ابناً شرعياً أم غير شرعي، وهو قادر على إنجاز استمرارية الأسرة التي أسسها سبتموس سيفيروس فقد كان رمزاً للاستمرار لاسيما وأن الاسم الذي اتخذه وهو ماركوس اوريليوس أنطونيوس كان له رنة خاصة ذكرت الجميع بالسلم والازدهار والاستقرار الذي كان سائداً في عصر الأنطونيين.

لقد كان إحراز النجاح صعباً جداً لو استطاع ماكرينوس السيطرة على القوة العسكرية أو تأييد الرأي العام في الإمبراطورية إذ أنه لم يستطع الاعتماد على أي منهما. فقد كان حاكماً لولاية على الحدود يتمتع بتأييد ولاء جيش عظيم كما كان الحال مع سبتموس سيفيروس عام 193م. ولقد أصبحت القوى العسكرية الموجودة على نهر دجلة تحت قيادته فجأة وعلى سبيل المصادفة، فلم يشعر الجنود بأي ولاء أو حب شخصي له، وكان هو نفسه مفتقراً لتلك الصفات التي توحي لهم بالولاء وكانت شخصية ماكرينوس ضعيفة. وزاد احتقاره كونه منتمياً إلى الطبقة القانونية ولذلك تخلى الجميع عنه عندما تأكدوا أن اغتيال كاراكلا كان من تدبيره وعمله.

وكان نفوذه في روما لا يقل ضعفاً عن نفوذه في الأمكنة الأخرى. فلم يكن الشعب متحمساً لتأييد إمبراطور لم يروا وجهه منذ بداية حكمه. وأما الذين صفقوا له في أول الأمر لأنه خلصهم من حكم كاراكلا، فقد بدأ حماسهم يفتر عندما لم تصبهم أي فائدة مرجوة منه كما هي العادة كالترقية في الوظيفة أو تخفيف الضرائب وما شابه ذلك. وهكذا أخذوا يعيبون عليه أصله الوضيع وافتقاره للمؤهلات اللازمة للحكم وبالوقت نفسه ولرغبتهم الشديدة في التغيير أغفلوا هذه المواصفات بالنسبة لمنافسه الذي لم يكن لديه أي مؤهلات للحكم أيضاً. ومما زاد الطين بلة، تلك الرسالة التي أرسلها ماكرينوس لمجلس الشيوخ من أنطاكية التي أظهر بها احتقاره لأعدائه الذين كان يقودهم ولد مجنون والتي شكا فيها وتذمر من الصعوبات التي يعانيها في الحفاظ على النظام لدى العساكر، وأنذر المجلس أنه سوف يضطر لإعادة الرواتب للمتطوعين كما كانت على الرغم من العبء الذي سوف يلحق بالخزينة من جراء ذلك، ثم أنهى رسالته بلهجة لا تخلو من الألم أن الإجراءات المشددة ليس لها أي تأثير في

رجال لا يهتمون بحفظ حياتهم قدر اهتمامهم بحرمان إمبراطورهم حياته، ولكنه عاد ليضيف أنه لا يقصد بهذه الكلمات أمراً شخصياً، بل هو متأكد أن لا أحد في المجلس يود أن يراه ميتاً. وفي تلك اللحظة وكما قال ديو نهض أحد القناصل السابقين وهو من أعداء ماكرينوس مقاطعاً وقال: «بلى، نحن نريد ذلك ونحن نصلي لأجل حدوث ذلك».

وحالما وصلت ماكرينوس الأخبار عن تزايد وتيرة الامتعاض والاستياء في الإمبراطورية، أخذ في جمع قواه لمعركة حاسمة، فقد قرر إرسال حملة إلى مقر التمرد وأَسْرَ ذلك الولد الذي تجرأ على تحديه والقضاء على الفتنة في مهدها. ولكن العدو سبقه قبل استكمال استعداداته. فقد فضل كومازون الذي استلم القيادة في حمص، الهجوم على الدفاع فتقدم حتى أصبح على بعد أربعة وعشرين ميلاً من أنطاكية عندما أحس ماكرينوس بقدومه. أخذ ماكرينوس على حين غرة فأسرع في جمع الحرس البريتوري حوله، وهو القوة العسكرية الوحيدة التي كان بإمكانه الاعتماد عليها، ولكن الحرس البريتوري كانوا قوة دفاعية وليست هجومية، كانوا يرتدون الدروع الثقيلة من المعدن وعندما أمرهم بالاشتراك بالمعركة تذمروا وسألوا كيف يمكنهم التحرك والقتال وهم تحت عبء تلك الدروع والحرارة الخانقة في العراء. وفي لحظة من لحظات اليأس أمرهم بنزع الدروع والقتال بالأسلحة الخفيفة وهكذا هجم الحرس البريتوري بما عهد به من شجاعة وسرعة في الحركة وربحوا المعركة وهُزِمَ العدو وفَرَّ هارباً.

وجلست ماسيا ومعها سهيمة والولد الإمبراطور في عربة يراقبون سير المعركة في المؤخرة، وعندما علموا بانكسار جيشهم قفزت الامرأتان من العربة واختلطتا بالجنود الهاربين يحثانهم ويتوسلان إليهم للاستمرار في القتال، وأما الولد فقد امتطى حصاناً ولوح بسيفه وتقدم إلى الأمام للهجوم على الحرس البريتوري المتقدم. أوقع موقف النسوة والولد الخجل في نفوس الجنود الهاربين وكان لمنظر الولد الحامل سيفه والمتقدم إلى الأمام فعل السحر، فرجع الجميع تحت قيادته وأنزلوا الهزيمة بالحرس البريتوري.

ومع ذلك فقد بقيت النتيجة مزعزعة ومتأرجحة ولكن عندما رأى ماكرينوس جيش العدو يلم شمله ويتقدم، ظن أنه خسر المعركة وهرب إلى أنطاكية. وعندما رأى الحرس البريتوري الذين كانوا يقاتلون بشجاعة أن العلم الإمبراطوري قد اختفى انتابهم اليأس فلم يعلموا ماذا حدث بقائدهم، وعندها وصلتهم أخبار هربه. وهكذا لم يجدوا بداً من إرسال مبعوث إلى كومازون لإخباره بقرارهم بنقل ولائهم إلى الإمبراطور الجديد شريطة إعلان العفو العام. وقد قبل كومازون عرضهم بكل سرور، وهكذا توجهت القوى الجديدة إلى أنطاكية للقبض على ماكرينوس وأسره.

كان ماكرينوس قد وصل إلى أنطاكية وأعلن حفاظاً لكرامته أن جيشه هو المنتصر. ولكن ظهر كذبه وتلفيقه عند مجيء الجنود الهاربين من المزارع القريبة. وقد زاد في يأسه وهلعه علمه أن الحرس البريتوري قد انضم إلى العدو. وكان ابنه الذي بلغ التاسعة من العمر معه، وكان يفخر بهذا الابن ويعده ليكون الإمبراطور بعده. وكان أول همه حماية ولده فسلمه إلى جماعة من الذين يثق بهم لأخذه إلى الحدود الشرقية وتسليمه إلى أرطبان ملك الساسانيين. وقد أمل أن يشفق على ابنه من ابن الإمبراطور الروماني الذي أفشل حفلة العرس بالأعمال الدموية ونهب ونبش قبور الملوك في أرابيلا. وفي أثناء ذلك اقتربت الجيوش المهاجمة، وانتشر الذعر والفوضى في أنطاكية فقد اقتتل الناس، ففُتِل من كان يرغب في مهادنة العدو وقُتِلَ أيضاً من كان يقاوم فكرة التسليم. وفي أثناء تلك الفوضى أتى ماكرينوس بأحد الحلاقين الذي قص له شعره الأجعد وحلق له ذقنه ولحيته، التي كان يتباهى بها في أيام عزه بكونها تشبه لحية ماركوس اوريليوس، وبعدها امتطى حصاناً بعد إخفاء الرداء الإمبراطوري الأرجواني وأسرع في السير شمالاً مع شرذمة من المرافقين متجهاً إلى كيليكية.

أسرع بالسير إلى بيزنطية حيث أراد أن يسبق بنفسه خبر انكساره وأراد أن يركب البحر من هناك ذاهباً إلى روما حيث كان يعتمد على مجلس الشيوخ لدعم قضيته. وفي طريقه نفذ منه المال قبل الوصول إلى بيزنطيه. ففي خالدونية Chalcedon طلب الإمبراطور بعض المال من أمين الخزينة وهذا شك في أمره وحوله إلى الحاكم. وكان هذا الحاكم من مؤيدي ماسيا، وقد عَرَفَ الإمبراطور واعتقله وأرجعه إلى أنطاكية تحت الحفظ.

وفي طريق رجوعه إلى أنطاكية علم أن ابنه الصغير قد قتل وهو في طريقه إلى فارس، وهكذا لم يبق لماكرينوس أمل بالحياة. وقد سُمِحَ له أن يجلس في العربة دون أن يقيد بقيود. فانتظر لحظة مناسبة عندما كانت الخيول في أقصى سرعتها وقفز إلى الطريق وهو يقصد الانتحار. ولكن هذه المحاولة لم تسبب له الموت بل كسر كتفه. ولكن الجندي الذي كان مسؤولاً عن حراسته في العربة أجهز عليه وقطع رأسه وأبقى جسمه في العربة، ثم حمل الرأس إلى أنطاكية. بقي الرأس دون دفن على قارعة الطريق وهو بقايا رجل لم يتجاوز الرابعة والخمسين من العمر، وقد ظل في الحكم مدة سنة وشهرين.